الفصل 03
عميلة من أجل السلام

يوجد مَثَلٌ متداول في مجتمع الاستخبارات، يقول: «إذا أرادوا النيل منك، فإنَّهم سيأتون ويقضون عليك».

ولكنَّني أنسى أحيانًا ما الذي يعنيه هذا بالنسبة إلى مَن هم خارج اللعبة؛ أعني: كيف يمكن إغراء ناشطة سلام لتصبح عميلةً لوكالة الاستخبارات الأمريكية في مكافحة الإرهاب، بحيث تتواصل بانتظام مع السفارة العراقية أو البعثة الليبية في الأمم المتحدة؟

لقد بدأت حياتي السرية على غير المتوقع مع تسارع الأحداث المرتبطة بأول تفجير في مركز التجارة العالمي في شهر فبراير عام 1993م. ومثل تراجيديا إغريقية فقد عشت أعظم لحظات حياتي وأنا أتتبع قضية مركز التجارة العالمي من البداية حتى النهاية.

وحدث في حفل غداء مع القيادية الفلسطينية حنان عشراوي، في نادي الصحافة الوطني، أن انحنيت على الطاولة، ثم همست لدبلوماسي من تونس أنَّني أملك معلومات عن شخص قد يكون متورطًا في أنشطة إرهابية، قائلةً له: «إنَّه إرهابي خطير، لقد كان سجينًا في إسرائيل مدَّة عام، وتعتقد والدته أنَّه قد مات».

قطعت حنان عشراوي محادثتي مع الدبلوماسي بخطابها الرائع، لكنَّني اتصلت بالسفارة التونسية في واشنطن بعد أسابيع عدَّة، وطلبت معرفة مكان الدبلوماسي الذي قابلته في

حفل الغداء، مؤكدةً ضرورة مواصلة محادثتنا في أقرب فرصة ممكنة، فقالوا لي إنَّ ذلك الدبلوماسي قد عاد إلى تونس.

ومع ذلك، فقد دعاني السيد منير أدهوم إلى زيارته في السفارة عندما أحس أنَّني أُلِح في طلبي.

ذهبت إلى لقائه وأنا أشعر بخوف شديد، وأبلغته أنَّني أعتقد أنَّ مركز التجارة العالمي على وشك أن يتعرض لهجوم من متطرفين إسلاميين من جنوب مصر، ممن يريدون الإطاحة بالرئيس المصري حسني مبارك.

ولا تزال التفاصيل الكاملة لمحادثتنا مسألةً حسّاسةً جدًّا حتى يومنا هذا. لِنَقُل إنَّ مَن هم بحاجة إلى أن يعرفوا، يملكون هذه المعلومات أصلًا، أما خارج تلك الحلقة، فإنَّ إفشاء أي جزء من محادثتنا قد يُعَد عملًا غير ودي، وما أريد قوله إنَّ تحذيري كان دقيقًا بتفاصيله كلها، ولم يحدث أنَّني حذفت أي شيء مما قلته للسيد أدهوم في الرابع من شهر فبراير عام 1993م، والمخيف في الأمر أنَّ تلك المحادثة جعلت عملي في مكافحة الإرهاب حلقةً كاملةً، بدأت بالتحذيرات المتعلقة بمركز التجارة العالمي، وانتهت بها، وهذا ما يُدهش بعض الناس، حتى أنا.

كان السيد أدهوم مهذَّبًا، ولكن مُتشكِّكًا، ولا غرابة في ذلك، فقد كنت غير معروفة تمامًا، لقد ظهرت فجأةً لأنقل إليه بعض المعلومات الخطيرة، ثم اختفيت؛ أما بالنسبة إليَّ فقد انتهى الأمر عند هذا الحد؛ لأنَّني أوفيت بالتزامي وكفى.

لكنَّ الأجواء في السفارة التونسية تغيرت بسرعة؛ فبعد يومين من اجتماعي بالسيد أدهوم، تعرَّض مركز التجارة العالمي لأول هجوم في تاريخه في السادس والعشرين من شهر فبراير عام 1993م، عندما انفجرت شاحنة محملة بالمتفجرات في قسم الخدمات السرية بالمرآب.

وقد اخترق الانفجار ثلاثة أدوار من الخرسانة في المبنى المُؤلَّف من 110 أدوار، ناشرًا الغبار والحطام في أرجاء المكان، وامتدت ألسنة اللهب إلى الأدوار العليا لأحد البرجين [57].

أحدث الانفجار أيضًا حفرةً في الجدار الذي يعلو محطة الميترو. وبأعجوبة، قُتل في الانفجار خمسة أشخاص فقط، وجُرح أكثر من ألف شخص آخر، وقد انقطعت الكهرباء والإضاءة، وتوقفت المصاعد عن العمل تمامًا.

تلك اللحظة غيَّرت حياتي إلى الأبد، فقد سارعت وزارة العدل إلى إبلاغ حشد من الصحفيين أنَّ امرأةً مجهولةً قد حذَّرت من هجوم إرهابي قبل يومين من وقوعه، وأكدت لهم أنَّها ستتابع كل ما أدلت به المرأة باهتمام شديد، وفي اليوم الثاني سُحب التحذير؛ لأنَّه «بلاغ كاذب».

لكنَّه لم يكن بلاغًا كاذبًا؛ فقد كنت تلك المرأة، وكان الجزء الخاص من مضمون رسالتي، بما في ذلك وصف الجهود الرامية إلى الإطاحة بالرئيس حسني مبارك، هو الجزء الحسّاس فقط الذي لا يجوز الإعلان عنه، حتى إلى ما بعد الإطاحة بالرئيس مبارك بعد (20) عامًا.

وإذا كانت وسائل الإعلام لا تعرف هويتي، ولم تسمع بتحذيراتي، فإنَّ سلطات تطبيق القانون والمجتمع الاستخباراتي كانا على علم بهويتي، خاصةً عندما اتضح لهم أنَّني كنت محقةً كل الحق في توقعي للتهديد المُوجَّه إلى حكومة حسني مبارك؛ فقد حرَّض الشيخ عبد الرحمن ورمزي يوسف- اللذان أُدينا في مؤامرة التفجير- على الإطاحة بنظام مبارك العلماني، وتشكيل حكومة متشددة تعمل بتعاليم الشريعة الإسلامية [58].

وسرعان ما تعرَّضت لضغط شديد من وكالة الاستخبارات الأمريكية، ومكتب التحقيقات الفيدرالي، فشعرت بدايةً بخوف شديد من التحقيقات، لكنَّ جنون الاضطهاد كان صحيحًا، ولم يكن غير منطقي كما اتهمني بعضهم.

كان عمري (29) عامًا، وقد ماتت والدتي، التي كانت مصدر إلهامي، بالسرطان في العام الماضي. وفجأةً، وبعد أن صدَقت تحذيراتي بخصوص أول هجوم إرهابي كبير داخل الولايات المتحدة منذ الهجوم الياباني على بيرل هاربر- يستهدف مركز التجارة الدولي تحديدًا- وجدت أنَّني أتعرَّض لأقسى صور المراقبة، لقد كانت هذه أول تجربة قاسية بالنسبة إليَّ.

لقد حشدت سلطات تنفيذ القانون قواتها كافةً لإلقاء القبض على الإرهابيين، وها أنا ذا أُصبح - بين ليلة وضحاها- مطاردةً بكل معنى الكلمة.

عندما كنت أختفي عن وسائل الإعلام كانوا يتظاهرون بالفضول، ويتساءلون: لماذا لم أُهرع إلى عالم الشهرة؟ وفي المقابل، ربما كان سكوتي مطلوبًا؛ لأنَّه أحدث نوعًا من الشعور بالأمان لدى الإرهابيين، الذين كانوا يجهلون حساسية المعلومات التي تملكها الحكومة الأمريكية بشأنهم، وهذا ما نفع وكالة الاستخبارات الأمريكية، ومكتب التحقيقات الفيدرالي في عملهم. عند هذه المرحلة أصبحت أساليب المراقبة اقتحاميةً بصورة كبيرة؛ لإجباري على تغيير رأيي بخصوص الإبلاغ عن التحذيرات.

في الجانب المشرق، وفر لي وجودي في شقتي وقتًا للاعتناء بها، فأصبح الأثاث لامعًا نظيفًا، وكنت أُمرِّر إصبعي على أي مكان فلا أجد ذَرَّةً من الغبار.

كانت مجموعات صغيرة من عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي ووكالة الأمن الوطني تتجمع خارج شقتي في ضاحية آدامز مورغان، وعندما كنت أغادر إلى العمل صباحًا كان أحدهم يتبعني إلى محطة ميترو ديبونت سيركل، ثم يقف عند أعلى السلَّم وأنا أنزل إلى المحطة، وعلى الجانب الآخر من نهاية خط الرحلة كانت المرأة نفسها تنتظر كل صباح من دون أن تترك مكانها، ثم تتبعني إلى بناية مكاتب لونغ هاوس حيث بدأت العمل فيها سكرتيرةً صحفيةً لعضو الكونغرس بيتر ديفازيو، قبل الانتقال إلى مكتب منافسه رون وايدن الذي هزم ديفازيو في انتخابات مجلس الشيوخ.

استمرت مراقبتي اليومية في الشارع مدَّة خمسة أو ستة أشهر تقريبًا، وفي هذه الأثناء بدت لي بعض عمليات المراقبة هزليةً؛ ففي عصر أحد الأيام وعندما كنت أحمل بعض لوازم البيت، اعترضني شاب عربي لطيف يلبس بنطالَ جينزٍ متسخًا وقميصًا بكُمَّين قصيرين، على بُعْد خطوات من شقتي، حدث ذلك في شهر مايو أو يونيو عام 1993م، بحسب ما جاء في مفكِّرتي، حياني بابتسامة عريضة [59]، ثم قال لي بوضوح: «أنا قادم من جنوب مصر، هل تعرفين أحدًا من هذا المكان؟ هل تعرفين أي إرهابي؟ صدقيني، أنا جاد في سؤالي؟ هل تعرفين أي إرهابي؟ عليك أن تخبريني».

بعد ذلك، قدَّم عرضًا لرشوتي، وأخرج من جيب بنطاله الرث محفظةً مليئةً بأوراق نقدية من فئة مئة دولار. انفجرت ضاحكةً، ثم صفقت الباب في وجهه.

في الظروف العادية قد تكون فكرة إخضاع فتاة أمريكية لمراقبة أجنبية في مقاطعة نيويورك أمرًا مستغربًا، ولا يمكن التفكير فيها، وفي الحقيقة فإنَّ هذه اللقاءات كانت مجرد قمَّة جبل الجليد.

من منظور إنفاذ القانون، يُصنَّف هذا النوع من المراقبة العدوانية بأنَّه تَعدٍّ ضروري على حرياتي المدنية، ولكن ولأنَّني فتاة عمرها (29) عامًا، وتعيش وحدها؛ فقد كان ذلك مثيرًا للأعصاب، ولحُسن الطالع فإنَّ هذا الوضع لم يستمر طويلًا. لقد فعلت الشيء الصحيح، فكلما تحقق مكتب التحقيقات الفيدرالي ووكالة الأمن الوطني من دقة تحذيراتي زاد احترامهم لي؛ لأنَّني تقدمت وأبلغت في محاولة لوقف الهجوم، فقد فعلت شيئًا على الأقل، بدلًا من تجاهل الأمر.

احتفظت بمفكِّرة يومية بعد تفجير مركز التجارة العالمي عام 1993م، ولكن ما كتبته عن المراقبة أعطى المنتقدين مُبرِّرًا لاتهامي (بجنون الارتياب غير العقلاني) في أثناء خلافي مع وزارة العدل[60]. ومع ذلك، فإنَّ كتاباتي فقط تبدو مُتشكِّكةً؛ لأنَّ تحذيراتي من هجوم عام 1993م ظلت سرية، ولم تُعلَن على الملأ، ونتيجةً لما قمت له فليس مستغربًا تصرف الحكومة بعدوانية لمتابعة أنشطتي؛ إذ كان من المنطقي أن تفعل ذلك.

بعد هجوم عام 1993م بدا لي أسلوب المراقبة مكشوفًا وعدوانيًّا وهجوميًّا، وكنت قد تعلمت حين عملت ضابط اتصال أنَّ أحدنا لن يعرف أبدًا أنَّه مستهدف إذا أرادت الحكومة مراقبته سرًّا.

وإذا كنت تعلم بالمراقبة، فلأنَّهم يريدونك أن تشعر بها؛ فالرقابة الاقتحامية تهدف إلى إخافتك، وهي نوع من أنواع الحرب النفسية، وأُؤكِّد لك من خبرتي أنَّها فاعلة جدًّا.

ومع ذلك، فقد كنت أعتقد أنَّها قاسية ومبالغ فيها؛ إذ كنت ناشطةَ سلام ملتزمةً معارضةً للعنف بصوره كلها، وقد علمتني والدتي (جاكلين شيلي ليندار) كيف أعارض العنف منذ طفولتي في أثناء حرب فيتنام في ستينيات القرن الماضي.

كانت والدتي أستاذًا لأدب الأطفال، وكانت تستغل كل مناسبة لجعل طلبتها معارضين واعين للحرب، وقد فرَّ عدد من طلبتها إلى كندا بتشجيع منها؛ حتى لا يلتحقوا بالحرب.

قدَّمت والدتي أيضًا الإرشاد والمشورة للجنود الأمريكان الصغار العائدين من فيتنام الذين كانوا يحاولون التكيف مع الحياة الجامعية.

بعد ذلك بسنوات انتقلت عائلتنا إلى ولاية ألاسكا، فتألَّقت والدتي في المشهد الاجتماعي؛ إذ ترأَّست متحف الفنون الجميلة، واستقبلت شخصيات أجنبية عديدة، وخبراء في السياسة الخارجية كانوا يلقون محاضرات في مجلس الشؤون الدولية في مدينة أنكوريج، وكانت تقوم برحلات في براري ألاسكا، ويُعزى إليها الفضل في تأسيس خمس إذاعات، وعشر صحف أسبوعية في المناطق الريفية [61].

وبصفتها ناشرًا ورئيسَ تحريرٍ لإمبراطورية إعلامية، فقد دافعت والدتي عن إدارة صيد السمك، وحماية الثقافة المحلية، وعودة الكنائس الروسية الأرثوذكسية، والتعليم والرعاية الصحية، من بين قضايا محلية كثيرة، ومع أنَّها كانت مدافعةً عنيدةً عن التنمية، فإنها حشدت مجتمع صيد السمك في الولاية لدعم الحظر على شبكات الصيد الطافية التي قضت على ملايين الأسماك والحياة البحرية، وقادت حملة لتوقيع معاهدة دولية لمنع الصيد الجائر في المياه الدولية بين الولايات المتحدة واليابان وروسيا.

وفي تحول عن ماضيها المعارض كانت والدتي تدعو كبار (الجنرالات) من القاعدة الجوية المجاورة الذين حصلوا على نياشينهم وأوسمتهم من حرب فيتنام، وكان هؤلاء يداعبونها بالحديث عن ماضيها المعارض لحرب فيتنام، ومشاركتها في المظاهرات، إلى أن تحولت من ناشطة متطرفة إلى شخصية معنية بالعمل الاجتماعي، إلا أنَّ الملحقين العسكريين و(الجنرالات) في مدينة أنكوريج كانوا دائمًا يمتدحون الدعم الذي قدَّمته للجنود الشبان العائدين من فيتنام.

لقد كانت والدتي تعارض الحرب، لكنَّها لم تكن أبدًا ضد الشباب الذين جُنِّدوا للقتال، لذلك، فقد كنت – في واقع الحال– حريصةً على الاقتداء بها في مناهضة الحروب.

كانت والدتي تحتفظ بملصق في أثناء حرب فيتنام يحمل العبارة الآتية: «الحرب ضارة بالأطفال والكائنات الحية الأخرى». لقد علمتنا أنَّ الحياة قيِّمة ومقدسة، وكانت تحترم داعية الحقوق المدنية مارتن لوثر كينغ. وبينما كانت أمريكا تحارب العنصرية في ستينيات القرن

الماضي حرصت والدتي على جعلنا نلعب في بيتنا مع الأطفال السود، وأولئك المنتمين إلى أصول أمريكية لاتينية. لكنَّ الوضع في عام 1968م كان مختلفًا.

ونتيجةً لهذه التربية في طفولتي؛ فقد تعلمت أن أحترم الحقوق الثقافية للشعوب الأخرى، وهذا درس تخطى الحدود العرقية والإثنية والجغرافية؛ وهو يعني أيضًا أنَّ النشاط المناهض للحرب والعدالة الاجتماعية شكَّلا جوهر فلسفتي السياسية قبل مدَّة طويلة من حرب الخليج الأُولى عام 1990م.

ولأنَّني تخرجت في جامعة سميث بولاية ماساتشوسيتس، وجامعة لندن للاقتصاد؛ فقد عارضت – عمليًّا– السياسة الأمريكية الخارجية كلها، بدءًا بإدارة ريغان، وانتهاءً بإدارة بوش. وللمفارقة، فإنَّ نشاطي السياسي تركز على معارضة وكالة الاستخبارات الأمريكية.

وكنت قد تظاهرت كثيرًا ضد نظام الأبارثايد في جنوب إفريقيا، وعارضت التدخلات الأمريكية جميعها في أمريكا اللاتينية طوال حقبة الثمانينيات. أما في الجانب السياسي فقد أيدت الجبهة الساندينية ضد ثوار الكونترا في نيكاراغوا، وعارضت فرق الموت في السلفادور وهندوراس (كانت الولايات المتحدة تدربها وتدعمها ماليًّا). وهكذا، فقد عارضت الحروب والسياسات العسكرية، وساندت الفكر التحرري ونزع السلاح الذري، وبذا فإنَّ فلسفة مناهضة الحرب هي التي شكَّلت معتقداتي وأفكاري الدينية.

كان الدكتور آندرو زيمبالست هو أستاذ الاقتصاد المُفضَّل في الجامعة، وقد عارض بشدة الحظر التجاري على كوبا، وكان من أبرز معارضي العقوبات في زمانه [62]، وهو الآن خبير في الاقتصاد الرياضي [63]، وقد علمني في تلك الأيام كيف تَجعل العقوبات دولًا كاملةً ترزح تحت الفقر، وما يرافق ذلك من آثار طويلة المدى تحدُّ من فتح أسواق جديدة أمام البضائع الأمريكية، وبهذا المعنى فقد علمني كيف تحدُّ العقوبات من الانتعاش الاقتصادي للشركاء التجاريين في كلا الاتجاهين.

من هنا أخذت أُدرك أنَّ العقوبات تقضي على التواصل تمامًا، وأنَّ الدبلوماسية هي الأداة الفضلى لحل النزاعات؛ فالعقوبات تضع حواجز أمام الحلول المتبادلة الضرورية لكسر الجمود،

خلافًا لحلول (كل شيء، أو لا شيء) التي يصعب التوصل إليها؛ لذلك نرى أنَّ الصراعات الخطيرة تتفاقم من غير توقف بسبب سياسة العقوبات.

لقد أثَّر فيَّ هذا الدرس كثيرًا؛ إذ دفعني حماسي المناهض للعقوبات في كلية سميث نحو أكثر الفرص إثارةً في حياتي، وقبل هذا وذاك غمرتني هذه الجامعة بالإحساس بالتمكين، وعزَّزت إيماني الراسخ بضرورة إسهام المرأة في حل القضايا الشائكة.

حفزني هذا الشعور بالثقة إلى قبول التحدي بالعمل ضابط اتصال مع الحكومات العربية المحافظة، وهذا ما أنقذني عندما حاولت وزارة العدل تحطيم اعتزازي بإنجازاتي وإحساسي بهويتي.

لولا كلية سميث ما تمكنت من الصمود أمام محنة إدانتي المرعبة، ولما استطعت الدفاع عن نفسي بشراسة، أو استجماع الثقة لمواجهة هؤلاء الخصوم الأقوياء، وأنا أدين لآندرو زيمبالست وكلية سميث بكل شيء.

بعد تخرجي في كلية سميث التحقت بجامعة لندن للاقتصاد، وفيها أضفت شيئًا مهمًّا جدًّا إلى حياتي؛ هو التعرف شخصيًّا إلى أبناء (وبعض بنات) وزراء ودبلوماسيين من مختلف دول العالم، مثل: باكستان، ومصر والعراق، وإيران. وقد عرفتني فلسفة الجامعة بتنوع النظم السياسية العالمية، بما في ذلك فلسفة الحكم في الإسلام التي تتعارض مع كل شيء كنت أعرفه عن السياسات.

بدايةً، أعترف أنَّني لم أكن متسامحةً. ولأنَّني كنت ناشطةً في الحركة النسوية؛ فقد استهوتني تعاليم الإسلام، وأخافني اضطهاده للمرأة، ومع ذلك فإنَّ الثقافة العربية أثارتني كثيرًا، ولأنَّني إنسانة متدينة فقد اكتشفت في داخلي إعجابًا بالتعاليم الإسلامية، وفي نهاية المطاف تعلمت أن أحترم العرب ثقافيًّا، وكيف أُناقش اللاعنف في سياق الفلسفة الإسلامية بطريقة تجعلهم يستمعون إليَّ، بحيث يستطيع أحدنا أن يفهم الآخر، وبهذه الطريقة فقد مكَّنني انغماسي في جامعة لندن للاقتصاد من المشاركة في حوارات ناجحة مع دبلوماسيين عرب بالأمم المتحدة في سنوات لاحقة، ومن دون هذا التعرُّض المبكر للتنوع في النظم السياسية، فلربما لم يكن بمقدوري بناء جسور مع هذه السفارات، لقد أكسبتني هذه الجوانب كلها في

حياتي المبكرة التزامًا بالحوار، ومعارضة العسكرتاريا، وهذا ما انعكس على وظيفتي الفريدة جدًّا.

توجد خصيصة معينة حددت مسار حياتي، هي اهتمامي طوال الوقت بالروحانيات والغيبيات؛ فمنذ طفولتي المبكرة كانت لديَّ قدرات روحانية، بما في ذلك توارد الأفكار (التلباثي)، واستشراف المستقبل، وفي النهاية فإنَّ هذه الهِبَة الجميلة التي حظيت بها أثبتت أنَّها جانب خلافي من جوانب حياتي.

يوجد حدث آخر أشعل خلافًا بخصوص معتقداتي الروحانية، ومع أنَّه كان غامضًا إلى حد ما، مثل أشياء كثيرة أخرى في حياتي، فإنه كان صحيحًا تمامًا، حدث ذلك في صباح اليوم الخامس عشر من شهر إبريل عام 1986م، بعد قصف الطائرات الحربية الأمريكية والبريطانية مقر العقيد معمر القذافي في طرابلس، حيث تقول الرواية إنَّ رئيس وزراء مالطا، عندما اخترقت الطائرات المغيرة الأجواء المالطية من دون إذن، اتصل بالقذافي مُحذِّرًا؛ ما جعله ينجو بأعجوبة [64].

وكما كانت مشيئة الله، كنت في تلك الليلة عالقةً في مطار موسكو الدولي أيام الاتحاد السوفيتي السابق، في طريق عودتي إلى لندن مع مجموعة من طلبة الجامعة. لم نكن ندري حينها أنَّ الولايات المتحدة قد وجهت تحذيرًا خاصًّا بضرورة بقاء جميع الطائرات السوفيتية على الأرض في أثناء الهجوم على ليبيا، وأنَّ أي طائرة سوفيتية تقلع من المطارات سيجري إسقاطها، كان ذلك في عهد إدارة ريغان الذي قال مازحًا في تسجيل لم يُبث: «سيبدأ القصف بعد خمس دقائق».

ومن دون أن ندري، فقد أصبحنا - نحن المجموعة- رهائن في الحرب الباردة، وبعد ساعات من التأخير، أسرعت طائرتنا بالإقلاع من مطار موسكو، وبعد مدَّة قصيرة من الإقلاع ظهرت طائرة حربية فوق جناح طائرتنا، وواكبتنا إلى خارج الأجواء السوفيتية، لقد كان هذا شيئًا لا يُنسى.

في صباح اليوم الثاني اكتشفنا سبب كل هذا التأخير حين قرأنا العنوان الرئيس في جريدة التايمز اللندنية: (الرئيس ريغان يقصف طرابلس)، في ذلك العام الدراسي كنت أسكن في

ضاحيـة إيرل كورت المحاذية لشـارع كروموبل وطريق كينسـنغتون السـريع؛ مركز تجمُّع جالية عربية متنامية في لندن، كنت أشعر بالإثارة من زيارتي لموسكو ولينغراد، وقررت الذهاب إلى حديقة هولندا القريبة من سكني.

كان الغضب يغلي في الشوارع، وكان الناس يشتبكون في عراك، في حين كانت الشرطة تُطوِّق معهد الكمنويلث البريطاني داخل الحديقة؛ بسبب بلاغ عن وجود قنبلة في المكان، جلست على أحد مقاعد الحديقة، فجاء رجل عربي كبير في السـن يبدو عليه الوقار، ويحمل عكّازًا أسـودَ، ثم جلس إلى جانبي.

وما حدث بعد ذلك كان محادثة من أمتع المحادثات التي أجريتها مع أي إنسـان في حياتي؛ لقـد غـيَّر ذلك اللقاء حياتي، وشـرح صدري للفرص التي سـتواجهني لاحقًا، لقـد أدركت فورًا أنَّ ذلك العربي المُسِـن كان يملك موهبةً عظيمةً فيما يخص استشـراف المسـتقبل، وهذا يبدو مُحيِّرًا للمُشاهد الغربي، لكنَّه مقبول في الشرق الأوسط، ونظرًا إلى ميلي إلى الروحانيات؛ فقد استجبت له مُشجعةً.

طوال سـاعة تقريبًا تحدث ذلك الرجل بإسـهاب عن مسـتقبل الشرق الأوسط، وعن حياتي المقبلة بتفاصيل مذهلة، وقد سُـحرت بما قاله، لقد تحدث بيقينٍ، وصبرٍ، وحكمةِ الشـيوخ؛ كان عربيًّـا محافظًـا جـدًّا، وقد تحـدث إليَّ بوصفي امـرأةً بالطريقةِ التقليديـة القديمة؛ من طرف فمه، مُشيحًا بعينيه عن وجهي.

تركـز حديثـه بصـورة خاصة علـى ليبيا والعراق، وقـد وصف بدقة متناهية كيف سـتفرض الأمم المتحدة عقوبات على ليبيا بسبب تفجير طائرة ركاب فوق إسكتلندا.

كانت هذه كلماته تحديدًا، وعندما مدَّ يديه إلى الأمام، استطعت أن أتصور سطوح القرميد الأحمر خلال هيكل الطائرة المحطَّم.

لم يكن لديَّ أدنى شك في أنَّ تلك هي مدينة لوكيربي الإسكتلندية.

انتقـد الرجـل بشـدة مـا أسـماه (حـرب دجلـة والفـرات)، التـي سـمَّيتها بعـد ذلـك (حرب العراق).

ومهمـا يبـدو الأمـر غريبًا، فإنَّ ذلك الرجل انتقد بقسـوة العقوبـات المفروضة على العراق؛ لأنَّها - كما قال- سوف «تُسبِّب وفياتٍ ومعاناةً رهيبةً لشعب دجلة والفرات بعد انتهاء الحرب، وقبل استمرارها».

ومـن دون أن أسـأله، قـال إنَّه توجـد جولة ثانية من الحـرب، وتمنى لو أنَّه يسـتطيع وقفها، ونحـن نعرف هذه الحرب -بلا شـك- باسـم (حـرب العراق)، ثم وصف الوضـع داخل العراق بإسهاب كما لو كان يقف عند طرف أحد شوارع بغداد، وهو ينظر إلى العنف في كل مكان.

ربمـا يكـون أكثر ما يهم أصدقائي العرب والمسـلمين، هو أنَّ الرجل أفتى بأنَّ على المسـلمين الحقيقيـين جميعًـا واجـبَ نجـدةِ العراق، وشـدَّد على أنَّ المطلـوب من المسـلمين الحقيقيين هو معارضة هذه العقوبات والحرب.

أمـا بخصوص الحـرب نفسـها، فقال: «علينـا أن نفعل ما بوسـعنا لوقف القتـال»، وإنَّ على الشـعوب العربية أن «تُعوِّض الشـعب العراقي عما لحق به من معاناة، وأن تسـاعده على إعادة بنـاء بلـده»، هذا مـا طلبه بكلماته الخاصة، لقد كان تحذيره واضحًـا؛ وهو أنَّ صور العنف كلها التي يتعرض لها الشعب العراقي مُحرَّمة بحسب تعاليم الشريعة الإسلامية، وأنَّ العرب خاصةً سـيُعذَّبون إذا ألحقـوا الأذى بالعراقيـين، وكل مـا طالـب بـه هـو أن لا تُفرض العقوبـات، وأن لا تحدث عمليات انتحارية، وأن لا يحدث احتلال.

واللافت في الأمر أنَّه شـدَّد على معرفته بالشـريعة لتبرير فتواه؛ لأنَّه رأى أنَّ الموقف العربي من الشعب العراقي كان يهمه أكثر من موقف المشركين أنفسهم.

وهنا أود الإشارة إلى أنَّ الرجل كان يتحدث يوم الخامس عشر من شهر إبريل عام 1986م، في صباح اليوم الثاني لقصف طرابلس.

وكانت طائرة (البان آم 103) قد فجرت وتحطَّمت فوق سـطوح مدينة لوكيربي في الحادي والعشرين من شهر ديسمبر عام 1988م، بعد عامين ونصف العام من محادثتنا، وقد فرضت الأمم المتحدة عقوبات اقتصادية على ليبيا عام 1992م؛ أي بعد ست سنوات من التفجير.

وكانت الأمم المتحدة قد فرضت عقوبات على العراق في شهر أغسطس من عام 1990م، بعد أربعة أعوام ونصف العام من فتوى الرجل، ثم شنت الولايات المتحدة حرب الخليج الأُولى على العراق في شهر يناير عام 1991م، وأتبعتها بالحرب الثانية في شهر مارس عام 2003م.

والأكثر من ذلك أنَّ الرجل وصف هذه الأحداث كلها مُفصَّلةً صبيحة اليوم الثاني من قصف طرابلس كما لو كانت تحدث هذا اليوم، لقد روى ذلك كله، وسبق الأحداث بسنوات، وما رواه قد يكون خلافيًّا، لكنَّه ليس اختلاقًا، وقد رفضت حذف أي جزء من هذه المحادثة.

ولقد لفت نظري ملاحظة أخرى؛ هي أنَّ ذلك الرجل العربي المُسِن كرَّر القول: «سوف تطرح عليك سلطات المحكمة أسئلة عني»، وهذا ما فعلته حقًّا سلطات المحكمة، ثم حثني على أن لا أخاف من الإجابة عن تلكم الأسئلة، وكان مُصرًّا على أنَّ السلطات سوف تستجوبني، وقد أخافني ذلك كثيرًا؛ حتى إنَّني أخذت - ونحن على ذلك المقعد في الحديقة- أبحث عن رجال الشرطة، لكنَّه ابتسم، قائلًا: «كلا كلا، هذا سوف يحدث لاحقًا، سوف تشهدين في قاعة المحكمة»، وما قاله حدث فعلًا بعد (20) عامًا.

كان ذلك الرجل العربي على يقين بأنَّني سوف أُستجوب من سلطات المحكمة، وهذا ما جعلني أُلِح على الدبلوماسيين الليبيين في نيويورك، وعلى ضباط وكالة الاستخبارات الأمريكية، ليسمحوا لي بالشهادة في محاكمة لوكيربي في صيف عام 2000م؛ لأنَّ الرجل المُسِن تنبّأ بذلك. يومها، سألني أحد الدبلوماسيين الليبيين: هل تعتقدين بوجود محاكمة أخرى؟

لقد أثَّرت محادثتي مع هذا الرجل في أكثر القرارات أهميةً في حياتي، وبعد مرور (24) عامًا عليها، ظلت ملاحظات الرجل تحظى بمصداقية كبيرة فيما يتعلق بخبراتي، وبالأحداث في الشرق الأوسط.

لقد أثَّرت هذه العوامل مجتمعةً في شخصيتي كثيرًا، وفي الكيفية التي أصبحت فيها عميلةً سريةً لوكالة الاستخبارات الأمريكية، بالرغم من انتقاداتي المتكررة للسياسة الأمريكية الخارجية، فمنذ مرحلتها الأُولى عام 1990م، أدركت أنَّ حرب العراق سترسم ملامح عصر العولمة.

وكما توقع ذلك الرجل العربي المُسِن صباح اليوم الثاني لقصف طرابلس، فقد أحزنتني وحشية العقوبات الدولية على العراق كثيرًا؛ لقد أوقفت العقوبات عجلة الاقتصاد العراقي بصورة كاملة، وتعذَّر على العائلات العراقية شراء الدواء والغذاء، أو الكتب المدرسية، أو الحاجات الضرورية، وكان الأطفال يجوعون ويموتون، وعانى جيلٌ كاملٌ الأُمِيّةَ. لقد كانت قسوة متعمدة واستهانة بالمبادئ الإنسانية التي قامت عليها هيئة الأمم المتحدة.

ومع تزايد ضحايا العقوبات القاسية بدأت أبحث عن طرائق أكثر فاعليةً للمشاركة في إنهاء النزاع، وقد شجعتني دراستي على الإيمان بضرورة ممارسة دور ما في حل المشكلات الاجتماعية، وربما كنت مدفوعًا بالعنجهية الغريزية؛ لأنَّني لم أكن أُدرك أنَّ معظم الجهود – على شاكلة جهودي– تنتهي بالفشل والإحباط.

كان اهتمامي الرئيس هو مساعدة المرأة العراقية، أردت مساعدة الأمهات العراقيات على إطعام أطفالهن، وأردت مساعدة المعلمين على تعليم الطلبة، وأردت مساعدة الأطباء على تأمين دواء لمرضاهم. تذكَّرت تاريخ طريق الحرير الذي كان يمر ببلاد فارس قبل مئات السنين، وأدركت أنَّ تبادل البضائع والثقافات قد يعطي الإصلاحات الاجتماعية والسياسية زخمًا.

ومثل بقية الناشطين الآخرين، فقد اعترفت بضعفي، ولكنَّني آمنت أنَّ الالتزام والعمل الجاد سيعوضان عن الضعف وشح الموارد المالية.

كانت هذه العوامل كلها معروفةً لدى الحكومة الأمريكية؛ نتيجةً للمراقبة المكثفة في أثناء التحقيق في تفجير مركز التجارة العالمي عام 1993م.

وكانت وكالة الاستخبارات الأمريكية تعرف مواقفي المعارضة للحرب والعقوبات الاقتصادية، وكانت تعرف أيضًا اهتماماتي الشخصية بالماورائيات والغيبيات، كانت تعرف كل شيء عن ذلك العربي المُسِن في لندن، والأهم من ذلك أنَّه قد ثبت أنَّ لديَّ قدرةً خارقةً على قراءة السيناريوهات الإرهابية، وكذلك تجميع الأجزاء المبعثرة كلها، ثم توقع ما سيحدث.

كان كل شيء مكشوفًا؛ كل شيء عني، ونقاط ضعفي وقوتي كلها، فقد وضعوني تحت المجهر، وعرفوا عني كل شيء بكل طريقة يمكن تصورها.

إلا أنَّ كل هذا لم يغيِّر من حقيقة اختيارهم ناشطةَ سلام ملتزمةً لتعمل ضابط اتصال لدى وكالة الاستخبارات الأمريكية، وتتعامل مع العراق وليبيا في قضايا مكافحة الإرهاب، ولكنَّ هذا ما حدث معي على أي حال.

في أواخر شهر أغسطس عام 1993م، تلقيت مكالمة هاتفية غير متوقعة من بات ويت، رئيس موظفي مكتب عضو الكونغرس هيلين بنتلي. باختصار، كانت السيدة بات من معارف والدي (جون ليندا ور) الذي خاض انتخابات منصب حاكم ولاية ألاسكا على قائمة الحزب الجمهوري لكنَّه خسر، وقد اتصلت لتُعبِّر لي عن تعازيها بوفاة والدتي، كانت السيدة بات تسكن بجوار السيناتور ستورم ثيرموند، وهو الذي قال لمديرة عملي السابقة، السيناتور كارول موسلي- براون (التي كانت أول امرأة من بين ثمانية أمريكيين أفارقة يُنتخبون لمجلس الشيوخ) إنَّه سيظل يُذكِّرها بأيام العبودية حتى تبكي، وهذا ما كان يُفسِّر عمق فلسفتها المحافظة.

عندما أصبحت وحيدةً، وبعد مُضي أشهر على تفجيرات مركز التجارة العالمي عام 1993م، كنت أبكي كثيرًا، وأقول لأصدقائي على الهاتف إنَّني أشتاق إلى أمي كثيرًا، ولم أبح لأي منهم أنَّني قد حذَّرت من وقوع أول هجوم على الأرض الأمريكية منذ الهجوم على ميناء بيرل هاربر، ولو أنَّني فعلت ذلك لربما كنت قد عرّضتهم للخطر؛ لذلك كنت أعزو حزني إلى موت أمي، وكانوا يتفهمون ذلك. مرَّت مدَّة بكيت فيها كثيرًا لأنَّني كنت حزينةً جدًّا، وعندما توطدت علاقتي بالسيدة بات أخبرتها بتحذيري، فقالت إنَّ الاستخبارات كانت تعرف ذلك. ثم إنَّ شعوري بفقدان أمي جعلها على اتصال دائم بي.

التقينا بعد ذلك لنتناول طعام الغداء في مدينة الإسكندرية بولاية لويزيانا، واكتشفت أنَّنا لم نكن متشابهتين، فقد كنا متناقضتين في القضايا جميعها المهمة في حياتي، لم يكن قد مضى على جلوسنا سوى خمس دقائق حين قالت إنَّها قادت حملةً مناهضةً لتعديل الحقوق المتساوية (اقتراح لعمل تعديل على الدستور يجعل التمييز بين الجنسين ضد الدستور، وليس ضد القانون فقط، كما هو منصوص عليه حاليًّا)، وأعربت عن سعادتها لفشل التعديل. أما أنا فكنت ناشطة في الحركة النسوية طوال حياتي، وقد ناضلت والدتي - التي نزعم أنا وهي أنَّنا نحترم ذكراها- من أجل إقرار هذا التعديل، وما أدهشني أن السيدة بات لم تُظهر أي ندم على خسارة المرأة الأمريكية.

في الوقت نفسه تقريبًا رفعت رأسها من على قائمة الطعام، لتعلن بأنَّ أحد أصدقائها المقربين سينضم إلينا حول مائدة الطعام، نظرت، وإذا برجل حجمه يماثل حجم جبل ينزل من شاحنة بيضاء، وعندما وصل قالت: «هذا بول هوفين؛ إنَّه يعمل مع وكالة استخبارات الدفاع».

عاودت قراءة قائمة الطعام، وهي تختلس النظر، لترى رد فعلي القلق.

لا يمكنني أن أصف ما جرى إلا أنَّه كان مصيدةً، كل ما خطر ببالي هو التفكير فيما سيحدث لو أنَّ بات وهوفين اكتشفا سري؛ بأنَّني حذَّرت من الهجوم على مركز التجارة العالمي قبل أشهر قليلة، ما الذي سيحدث لي عندئذٍ؟

شعرت أنَّني قد دخلت عرين أسد، وأنَّ هذين الشخصين كانا أسدين حقيقيين، وأنَّني ماعز، وأنَّهما سيقومان بافتراسي.

لم يمضِ على حيرتي وقت طويل حتى أخبراني أنَّهما يعرفان سري منذ مدَّة، ونظرًا إلى اختلافاتنا السياسية الحادة؛ فقد أقسما أنَّهما لم يكونا ليلتقيا بي لولا ذلك، لكنَّ الواضح أنَّ قرارًا قد اتُّخذ ليجعلوا شخصًا ما يراقبني في واشنطن؛ شخص يحرص أن لا أقع في مشكلات، وقد أُوكلت هذه المهمة إلى اثنين من الجمهوريين اليمينيين المتشددين اللذين لا يمكن أن يتسامحا مع أي حماقة ليبرالية، لكنَّني لم أفهم ذلك في تلك اللحظة؛ لأنَّني اعتقدت أنَّ الأمر مجرد (مصادفات) كما كنت أُؤمن دائمًا.

قررت الانسحاب، وإذا كانا يكرهان نهجي السياسي، فإنَّ الأمر يعني لي ببساطة أن لا نلتقي مرَّةً أخرى. لكنَّني فوجئت بأنَّ لديهما خططًا أخرى؛ فقد رفضا التراجع، ثم سرعان ما اكتشفت أنَّهما لاعبان محترفان. فمع أنَّهما محافظانِ متطرفانِ، فإنَّهما حققا إنجازات عظيمة؛ فقد كانت بات مؤرِّخةً تاريخيةً متمكنةً بطريقتها الخاصة، وبالتغاضي عن الفروق كلها في مواقفنا، فإنَّني احترمت تحليلها، مع كرهي الشديد لفلسفتها المحافظة المتطرفة.

أما هوفين فكان بطلًا بالمقاييس البشرية [65]؛ فقد شاهد الحرب على أرض الواقع في فيتنام من عام 1968م إلى عام 1970م؛ إذ كان يقود طائرة عمودية (هليوكبتر) وعمره (23) عامًا، وينقل الجرحى من مناطق الاشتباك مع العدو، أما مهمته القتالية الأُولى، فكانت الهجوم على الجسر الرئيس في مدينة سايغون لإخلاء الجنود الأمريكيين المحاصرين، فكان يُحلِّق في عمق

سماء المعركة، ثم يهبط لإنقاذ الجنود الشباب المتلهفين إلى الخروج من أرض المعركة، وكانوا إما جرحى، وإما على وشك الموت. كان الجنود يموتون بين يديه أحيانًا، ولم يحدث أن ترك منهم أحدًا وراءه، وقد أُسقطت طائرته مرَّتين فوق المناطق المعادية، وأمضى (1392) ساعة طيران في تنفيذ مهامه، وخدم في لاوس.

وكما تقول ليزلي كوكبيرن في كتابها **خارج عن السيطرة**[66]، فإنَّ هوفين كان «يحتفظ بشبكة علاقات واسعة في العالم المجهول للعمليات السرية الخاصة»، ولكن، وجِد أيضًا جانب فلسفي مدهش في حياته؛ فبالرغم من حياة بول الصاخبة، فإنَّه احتك ببعض النشطاء الليبراليين الذين يحظون بالاحترام في واشنطن، بمَن فيهم المحامي دانييل شيهان الذي دافع عن قضية دانييل السبيرج وكارين سلكوود[67].

وفي الحقيقة، فإنَّني أُعجبت بتاريخ هذا الرجل.

اكتسب دانييل شيهان شهرته من حركة (حق السجين) في سجن أتيكا الرسمي بنيويورك؛ فقد حاول في أثناء اضطرابات السجن عام 1971م أن يتوصل إلى حل سلمي قبل إصدار حاكم المدينة الأوامر باقتحام السجن بالقوة.

عمل في شركة إف لي بيلي للمحاماة التي مثلت لص ووترغيت جيمس ماكورد. وعندما كان في جامعة هارفارد للحقوق شارك في نشر مجلة مراجعة قانون الحريات المدنية، وكان مستشارًا لمكتب اليسوعيين في واشنطن[68].

وفي عام 1980م عمل شيهان مستشارًا لمعهد كريستيك الذي يسعى إلى توحيد المسيحيين واليهود والمتدينين الأمريكيين الآخرين في برنامج عمل للإصلاح السياسي.

من جانبه، كان هوفين كاثوليكيًّا مخلصًا، وقد عمل في مشروع للمشتريات العسكرية، وتولى مهمة كشف الفواتير المزورة التي يُقدِّمها مقاولو وزارة الدفاع[69]، وعن ذلك يقول: «معظم معلوماتنا تأتي من مكتب البنتاغون الذي يضم ضباطًا من الجيش، ومدنيين من وزارة الدفاع الذين يعتقدون أنَّ أنظمة الأسلحة لا تُفحص قبل شرائها، وأنَّ الوزارة لا تعرف كيف تستثمر الأموال[70]. لقد وفرنا الوثائق، وأعطينا الصحفيين المعلومات التي يريدونها، وقد

اقتُحمت مكاتبنا مرَّات عدَّة، وكذلك شقتي، لم يأخذوا أي شيء، لكنَّهم عبثوا بالمحتويات، وكسروا أقفال الأبواب» [71].

عمل هوفين وشيهان معًا، وتورطا في أخطر قضايا التجسس التي هزت واشنطن عندما أثَّرا بصورة محورية في كشف فضيحة أوليفر نورث وإيران كونترا، التي شملت شحنات مخدرات من أمريكا اللاتينية وصفقات أسلحة لإيران؛ من أجل تمويل العمليات الأمريكية السرية في نيكاراغوا.

كان هوفين يفتخر بأنَّ فكرة تعيين مُدَّعٍ عام في قضية إيران كونترا انطلقت من مطبخ شقته، وكان المُحلِّل السياسي ديفيد كورن قد لخص في كتابه (الشبح الأشقر: تيد شاكلي وحملات وكالة الاستخبارات الأمريكية 1994م) [72] دور شيهان وهوفين في كشف فضيحة إيران كونترا، وما جاء في الكتاب يدعم تفسيري لعلاقة هوفين في عالم الاستخبارات الغامض، وفي ذلك يقول المؤلِّف: «لقد درج بول هوفين (صديق شيهان، وأحد المحاربين القدامى) طوال عام 1985م على حضور حفلات رجال الوكالة السابقين.

في حفلة عيد الميلاد عرَّف كارل جينكنز (ضابط وكالة الاستخبارات الأمريكية المكلف بميامي ولاوس) هوفين بجيني ويتون الذي سبق له العمل مخبرًا للجيش في فيتنام، والعمل ضابط أمن في برنامج مراقبة سري جدًّا بإيران في منتصف السبعينيات من القرن الماضي، وفي عام 1979م عاد إلى الولايات المتحدة، وتولى سلسلة مهام تتعلق بالأمن، وعندما التقى بول هوفين كان ويتون يخطط مع كارل جينكنز وإد ديربورن (طيار سابق عمل مع وكالة الاستخبارات الأمريكية في لاوس والكونغو) للحصول على عقود حكومية لنقل إمدادات إنسانية للمتمردين المناهضين للشيوعية، من بينهم (المجاهدون) في أفغانستان، وثوار الكونترا في نيكاراغوا، إلا أنَّ هؤلاء الثلاثة فشلوا في الحصول على أي عقد، فاشتكوا إلى مسؤول في وزارة الخارجية من أنَّ ريتشارد سيكورد وأوليفر نورث يتحكمان بطريقة غير صحيحة في عطاءات العقود الخاصة بالكونترا.

في تلك الحفلة وافق هوفين على مساعدة ويتون، فرتَّب لقاءً مع موظف في الكونغرس كان يتابع برنامج الأفغان، ولم يفطن هوفين إلى أنَّ ويتون يخطط لأكثر من العقود؛ كان ويتون قد قضى معظم العام الفائت وهو يتعامل مع تجار السلاح وضباط وكالة الاستخبارات الأمريكية

والمرتزقة، واستطاع جمع معلومات عن العمليات السرية السابقة والحالية، بما في ذلك مشروع أسلحة الكونترا السري.

كان ويتون مهووسًا باغتيال ثلاثة أمريكيين في إيران عام 1976م يعملون في مشروع إيبكس السري، وقد عزا قتلهم إلى الاستخبارات الأمريكية وعصابة من الجواسيس السابقين المنفلتين في أمريكا الوسطى وأمكنة أخرى؛ لذا عندما اجتمع مع هوفين وموظف الكونغرس، ألقى خطابًا عن الاغتيال السياسي، ثم أفصح عما يريد، قائلًا: «يوجد عنصر مارق في الحكومة الأمريكية شارك في مجموعة من الأنشطة الإجرامية». لم يهتم موظف الكونغرس بما قاله ويتون، خلافًا لهوفين الذي هاتف شيهان ليحكي له رواية ويتون.

في مطلع عام 1986م كشفت التقارير الإخبارية عن وجود شبكة سرية لدعم ثوار الكونترا، تمتد إلى داخل البيت الأبيض، ويرأسها أوليفر نورث، مع أنَّ الكونغرس منع إدارة ريغان من مساعدة المتمردين عسكريًّا.

في هذه المنطقة وجد شيهان هدفه المنشود؛ برنامج خفي لدعم حرب سرية على الحكومة اليسارية في نيكاراغوا، ثم اجتمع بعد ذلك مع جيني ويتون الذي كانت لديه قصة مذهلة.

جلس جيهان وويتون في مطبخ بيت هوفين في مطلع شهر فبراير من عام 1986م، ثم روى ويتون حكايات عن عمليات سرية وعشرات الأسماء (فريق مسعور يدعم الكونترا، ويُنفِّذ عمليات سرية في أمكنة أخرى). كانت المخدرات جزءًا من العملية، وقد شارك بعض أعضاء هذه العصابة في عمليات حكومية مشبوهة في إيران وجنوب شرق آسيا».

وكما يقول موقع سبارتاكوس فورم، فقد «تبادل ويتون وجينكنز معلومات عن برنامج اغتيالات سري تُنفِّذه وكالة الاستخبارات الأمريكية بفيتنام في عامي 1974م، و 1975م، كان البرنامج يحمل اسم فونيكس بروجكت، وكانت مهمته السرية اغتيال الخبراء الاقتصاديين والسياسيين في محاولة لشل قدرة فيتنام على الاستمرار في أعقاب الانسحاب الأمريكي من سايغون.

وقد اغتال العاملون في البرنامج (60) ألفًا من رؤساء القرى والمحاسبين والمعلمين والإداريين، وموَّل تيد شاكلي وتوماس كلاينز مرحلة متسارعة جدًّا من المشروع عام 1975م، عن طريق تهريب الأفيون إلى فيتنام ولاوس»[73].

وكما يروي مؤلِّف كتاب (الشبح الأشقر): «عندما تحدث جيهان إلى ويتون وجينكنز، كان في الحقيقة يُفكِّر في أمر آخر؛ الغارات على نيكاراغوا التي استمرت عامين؛ ففي الثلاثين من شهر مايو عام 1984م انفجرت قنبلة في أثناء عقد مؤتمر صحفي في مدينة لابنسا بنيكاراغوا، وبعد هذا الحادث اتهم توني أفيرغان؛ وهو صحفي أمريكي أصيب بشظايا في الانفجار، وزوجته مارثا هَني، مجموعةً من الكوبيين المنفيين الذين يرتبطون بعلاقات مع وكالة الاستخبارات الأمريكية والكونترا بتدبير الهجوم القاتل، وقد ورد في تقريرهما أنَّ بعض مؤيدي الكونترا هم شخصيات معروفة في تجارة المخدرات».

في أواخر ربيع عام 1986م كان شيهان يحتك بالمخبرين السريين في واشنطن، ويجمع منهم معلومات عن عملية الكونترا، ثم ذهب لمقابلة رئيس المجموعة السرية إدوين ويلسون، ضابط وكالة الاستخبارات الأمريكية المتمرد السجين الذي روى قصة سببت لشيهان صدمة كبيرة. تقول القصة كما قال شيهان: إنَّ وكالة الاستخبارات الأمريكية أنشأت عام 1976م وحدة سرية لمكافحة الإرهاب بعيدًا عن إجراءات الوكالة الروتينية، كانت مهمة الوحدة تنفيذ عمليات اغتيال، وبعد انتخاب جيمي كارتر شُطبت هذه الوحدة من السجلات، وأُخفيت في شركات خاصة، كان شاكلي هو المسؤول عن هذه الوحدة داخل الحكومة وخارجها.

بعد مدَّة من مقابلة ويلسون خطر ببال شيهان أنَّ الأشياء كلها مترابطة: تفجيرات لابنسا، شبكة الكونترا، عصابة ويلسون، المنفيون الكوبيون الذين درَّبتهم وكالة الاستخبارات الأمريكية، التاريخ القذر لمؤامرات الوكالة، العمليات المناهضة لكاسترو، الحرب في لاوس، حرب التجسس الكريهة في حرب فيتنام، نشاط وكالة الاستخبارات الأمريكية السري في إيران، كانت حلقةً من المؤامرات المتواصلة، ولا يهم إن كان هؤلاء من داخل الحكومة أو خارجها؛ إنَّها حكومة شر ضمن الحكومة.

سخَّر شيهان موارد مؤسسته الصغيرة لهذه القضية، وجمع ثرثرة المخبرين وعددًا من الحقائق الملموسة، ثم فجر قنبلته؛ إذ رفع دعوى قضائية أمام محكمة ميامي على (30)

شخصًا وفقًا لقانون ريكو لمكافحة الابتزاز والاحتيال، متهمًا إياهم بالتورط في مؤامرة إجرامية شملت تدريب مرتزقة كوبيين أمريكيين في نيكاراغوا وتسليحهم وتمويلهم، إضافةً إلى تهريب المخدرات، وانتهاك قانون الحياد بدعم الكونترا، والاتجار بالأسلحة، وتفجير قاعة مؤتمر صحفي في لابنسا. كان المشتكي في القضية هو توني أفيرغان ومارثا هَني، وقد طالبا بتعويض يزيد على (23) مليون دولار، وبرفع هذه القضية، اعتقد شيهان أنَّه يستطيع القضاء على عملية دعم الكونترا، وفضح شخصيات خفية مارست الشر سنوات عدَّة.

أصيب هوفين وجينكنز بصدمة شديدة لأنَّهما لم يتوقعا أنَّ شيهان سيثير هذه العاصفة. وفي الحقيقة، فإنَّ شيهان لم يكن من النوع الذي يجمع المعلومات ويظل صامتًا، وعن ذلك يقول هوفين: «لقد تركوني أعتقد أنَّ دوري يقتصر على تسريب المعلومات إلى شيهان، ولكنَّهم -الذين طلبوا إليه الاتصال بشيهان- أفسدوا العملية، وزادوا الوضع تعقيدًا؛ لأنَّ شيهان لم يكن يكتم سرًّا.

وفي الواقع، فإنَّ شيهان كان من المطالبين بعزل الرئيس رونالد ريغان ونائب الرئيس جورج بوش لدورهما في مؤامرة إيران كونترا، وجمع عدد من المشاهير تبرعات لتمويل حملة الإطاحة بالرئيس ونائبه.

في الجولة الأخيرة منح المدعي العام الخاص (14) متهمًا حصانةً من المحاكمة، وعندما خسر الرئيس جورج بوش حملة إعادة انتخابه عام 1992م أصدر - قبل مغادرة البيت الأبيض- قرارًا بالعفو عن سبعة من المدانين في قضية إيران كونترا، ثم انتقل معهد كريستيك إلى لوس أنجلوس في عام 1995م [74].

وكانت سبع سنوات قد مرَّت على كشف شيهان مؤامرة الكونترا؛ بمساعدة قليلة من بول هوفين في اللحظات الحاسمة؛ وبعد هذه السنوات، ها هو هوفين يأتي مع بات ويت لمقابلتي في شهر أغسطس من عام 1993م. بقينا أول شهرين حذرين في التعامل مع بعضنا، لم نكن صديقين، ولم نكن زميلين، وأقول بصراحة إنَّ بول لم يُظهر ما يدل على أنَّه يحبني، ولكنَّه مع ذلك لم يتركني، بل قال لي مباشرةً إنَّه قد تقرر تكليف شخص ما بمراقبتي، وإنَّه هو ذلك الشخص، وقد أدى تلك المهمة بجدية تامة.

كان دائمًا يقول لي إنَّ لقاءنا لم يكن مصادفةً، فَهُم الذين طلبوا إليه مراقبتي، وهُم الذين خططوا للاتصال بي، مع اهتمام خاص بالتفاصيل الشخصية. كان أحد أصدقاء بول من جماعة (أخوية الصليب الوردي) التي تؤمن بالغيبيات، وكان يعيش في ولاية مينيسوتا، وكنت معروفًا باهتمامي بالغيبيات والماورائيات، وقد (راعوا) أهمية صداقته مع ذلك الرجل عندما أوكلوا إليه مهمة مراقبتي؛ لأنَّ من شأن ذلك أن يوجد رباطًا بيننا. لقد كرَّر بول ذلك أمامي مرَّات عدَّة.

أما الذي جنَّد هوفين فقد ظل مجهولًا، لكنَّ هوفين ذكر لي كيف أنَّ الكونغرس يمنع وكالة الاستخبارات الأمريكية من القيام بعمليات داخل الولايات المتحدة، أو وضع المواطنين الأمريكيين تحت المراقبة، وقال إنَّ عمليات مكافحة الإرهاب الداخلية - مثل العملية التي حُشرت فيها- تخضع لإشراف وكالة استخبارات الدفاع، وشدَّد على أنَّ مراقبتي لا تعني أنَّ أي شخص أو وكالة ينتهك القانون، وللمفارقة فإنَّ هذه المحادثة كانت قبل يومين من ذهابي لعمل مقابلة بخصوص وظيفة سكرتيرة صحفية في مكتب عضو الكونغرس رون وايدن.

قال لي هوفين إنَّه أُجبر على الاستقالة من وظيفة (ضابط متعاقد)؛ بسبب الإعاقة الدائمة التي تعرَّض لها عندما كان مساعد مخرج في برنامج (ستون دقيقة) مع مايك والاس لتغطية الغزو الأمريكي لبنما؛ إذ أصيب بعدوى فيروس في القلب عطَّلت ما نسبته (40%) من قدرته، وخضع في عام 2005م لعملية زراعة قلب في مايو كلينيك، وبالرغم من مرضه، فإنه لم يجد صعوبة في القيام بدور (ضابط حالة)، أو مسؤولي المباشر.

أخبرني أيضًا أنَّ وكالة استخبارات الدفاع تدير عملية خاصة في بحوث القدرات الروحانية على غرار السوفييت في أثناء الحرب الباردة، وقال إنَّه يعرف مديري برنامج البحوث، وإنَّهم تحدثوا عني.

كان هوفين رجل استخبارات حقيقي، ولم تمنعه النوبة القلبية من ممارسة هذا الدور، وقد قال في مقابلة تلفزيونية عام 2007م [75]: «عندما أصبت بالنوبة القلبية، وقع حدثان كنت طرفًا فيهما؛ الأول: الاجتماع الذي عُقد في مقر قوات المارينز لنقل أوليفر نورث من البيت الأبيض، والثاني: إلغاء برنامج قسم الدفاع الجوي لتطوير مدفع من عيار (40) ملم كان يراد تركيبه

على دبابة (إم- 48) القديمة، وهذه هي المرَّة الأُولى التي يجري فيها إلغاء نظام سلاح لوزارة الدفاع».

«وعندما بدأت أشعر بآلام في الصدر بعد تناول عصير البرتقال، اعتقدت أنَّه شد عضلي، وأخيرًا استدعى مرافقي الطوارئ. لقد عشت في مدينة آرلينغتون بولاية فرجينيا، وكانت مقاطعة آرلينغتون تدير خدمة الإسعاف الوحيدة، لقد أعطوني حبَّة نيتروغلسرين، ووضعت نقالة أمام سيارة الإسعاف.

ثم وصلت سيارة إسعاف أخرى، وأخذ الطاقمان يتجادلان بخصوص مَن يحق له أن ينقلني إلى المستشفى. ذكر أفراد الطاقم الثاني أنَّني كنت الشخص المشارك في إلغاء مشروع المدفع [ملحوظة: لقد كان الطاقم على معرفة بتفاصيل مشروعات هوفين التي يُفترض أنَّها سرية]، وقال أفراد الطاقمين إنَّه قد طُلب إليهما نقلي إلى مستشفى جورج واشنطن، في نهاية المطاف، فاز طاقم سيارة الإسعاف الثانية، وشرع في نقلي إلى مستشفى نورث فرجينيا، القريب من مقر وكالة الاستخبارات الأمريكية. دخلنا المبنى، وكان في استقبالنا (16) طبيبًا وممرِّضًا وفنيًّا.

لقد أنقذوا حياتي، ثم نقلوني بعد ثلاثة أيام إلى مستشفى منظمة الحفاظ على الصحة في واشنطن، وقد أبلغني نوت رويز (المترجم السابق لإمبراطور أثيوبيا) أنَّ إحدى ممرِّضاتي كانت ابنة ضابط ارتباط وكالة الاستخبارات الأمريكية في البيت الأبيض.

بعد مُضي أشهر عدَّة، التقيت كارل جينكينز [رجل استخبارات آخر درَّب منفيين كوبيين في المكسيك لعملية خليج الخنازير] في مطعم أوتول (مركز تجمُّع لعملاء وكالة الاستخبارات الأمريكية) بمدينة لانغلي.

وفيه أيضًا قابلنا طبيبًا سابقًا في القوات الخاصة كان في طريقه إلى أفغانستان لتقديم الرعاية الطبية للثوار المناهضين للسوفيت، تحدثنا في اللقاء عن أزمتي القلبية، فسألني إن كنت قد تناولت شيئًا باردًا قبل حدوث ذلك، فقلت له إنَّني تناولت بعضًا من عصير البرتقال، فقال توجد مادة تُسبِّب الأزمة القلبية، وهي موجودة في المشروبات الباردة.

وقد أبلغني داني شيهان أنَّ تسعة أو عشرة منا (لهم علاقة بقضية إيران كونترا، ومشروع المشتريات العسكرية) قد أصيبوا بنوبات قلبية، وأنَّني كنت الوحيد من بينهم الذي لم يمت.

ولكن، هل كان هوفين عميلًا سريًّا؟

كنت قد سألت بول مرَّةً: كيف لي أن أعرف العملاء السريين إذا اقتربوا مني في الأمم المتحدة؟ لكنَّه اكتفى بابتسامة، وهز رأسه، ثم قال:

— سوزان، إذا تمايلت في مشيتها مثل البطة، وصاحت مثل البطة، فإنَّها بطة.

— ولكن، يا بول: كيف لي أن أتحقق من ذلك؟.

— سوزان: إنَّها بطة.

لم يكن هوفين العميل السري الوحيد؛ فقد اكتشفت بعد مدَّة قصيرة أنَّ بات ويت أيضًا كانت على علاقة بمصادر استخبارات عالية المستوى؛ إذ كانت تعرف رئيسي في وكالة الاستخبارات الأمريكية ريتشارد فيوز منذ عشرين عامًا، وقد أقسمت بعد اعتقالي أنَّ هوفين وفيوز «يمكن أن يتعرضا للمحاكمة لحلف يمين كاذبة وعرقلة سير العدالة؛ إذا أنكرا علاقتهما بالاستخبارات، أو بمراقبة عملي».

ولكن، لم يكن الجميع على اطلاع؛ فبعض الناس الذين عرفوا بول وريتشارد سنوات عدَّة لم تكن لديهم أدنى فكرة عن علاقتهما بالاستخبارات، فهذه هي طبيعة هذا النوع من النشاط، ولا تجد في هذا المجال مَن يتبرع للبوح بالمعلومات، وإذا لم تكن بحاجة إلى أن تعرف، فلن تكون لك علاقة بالأمر، وستظل خارج الدائرة.

وإذا لم يريدوا أن تعلم فسيجعلونك تخمَّن، ويمكنهم الاختفاء خلف أنواع صيغ اللغة الفنية كلها لإنكار ذلك إذا أرادوا؛ لذا يجب ألَّا يقلقك ذلك، فهذه طبيعة الأشياء، وهذه طريقة عمل العملاء السريين. وقد وجدت هذه اللعبة ممتعةً، لقد شككت أحيانًا أنَّهم حاولوا اكتشاف ما إذا كنت مفيدةً، أو كان تحذيري بخصوص هجوم 1993م مجرد مصادفة، ولكن، لا بُدَّ أن أعترف أنَّ هوفين راهن عليَّ كثيرًا، فقد افترض في شهر مايو عام 2004م أنَّ قدرتي غير

الطبيعية على تصور سيناريوهات مكافحة الإرهاب، إلى جانب معارضتي الشديدة للحرب والعقوبات، قد تكون مجديةً عمليًّا في القضايا السياسية في الشرق الأوسط.

وقد طرح عليَّ -بحذر- فكرة الاتصال بالدبلوماسيين الليبيين في الأمم المتحدة لبدء محادثات عن محاكمة لوكيربي، بوصفي ضابط اتصال لجمع المعلومات الاستخباراتية.

والأصول (Assets) -كما تُسمى- هي تلك الفئة من المواطنين الذين اكتسبوا خبرةً أو اهتمامًا في مجال متخصص؛ ما يجعلهم قادرين على الوصول إلى المجموعات المستهدفة المرغوبة من مجتمع الاستخبارات.

عمليًّا، يشبه هذا العميل البيدق في لعبة الشطرنج، فهو يظل في ميدان اللعب أطول مدَّة ممكنة؛ بغية استغلاله لهدف أكبر (يكون عادةً غامضًا بالنسبة إليه)، وفيما عدا أنَّ هذه اللعبة استثنائية وديناميكية، فإنَّ معظم الناس لا يهتمون إذا كانوا قد استُغلوا أو خُدعوا؛ إنَّها فرصة لممارسة لعبة حقيقية؛ وفي حال ليبيا والعراق اللتين تخضعان للعقوبات، فقد كانت اللعبة تعني الوصول إلى مسؤولين عرب كبار، لا يستطيع سوى عدد قليل من الناس التحدث إليهم؛ من أجل فتح قنوات خلفية للحوار في سياسة مكافحة الإرهاب، وقد رأيت شخصيًّا أنَّ القيام بهذه المهمة قد يعطيني فرصةً عظيمةً للإسهام في إنهاء العقوبات الاقتصادية التي كنت أكرهها كثيرًا.

لذا، فقد اغتنمت هذه الفرصة عندما لاحت لي؛ إذ كان هذا أقصى ما طمحت إليه لأنَّني ناشطة سلام، وقد بررت قبولي بالمهمة بأنَّني لن أُضحي بمبادئ مناهضة الحرب إذا دعمت سياسة مكافحة الإرهاب، وتمنيت أنَّ يؤدي استمرار دعمي لسياسة اللاعنف إلى إكسابي احترام الحكومات العربية، ثم تعاونها في نهاية الأمر.

لن أعمل ضد الشعوب العربية، أو ثقافتها، أو الدين الإسلامي، وسوف أُثبت أنَّ سياسة مكافحة الإرهاب يمكن أن تنجح بالطرائق الدبلوماسية، واحترام الاعتزاز الثقافي، من دون عقوبات، أو تهديدات عسكرية، سوف تكون تجربة امرأة منفردة تتبع أسلوبًا جديدًا مختلفًا تمامًا في مكافحة الإرهاب، وسوف يعتمد نجاحي على قدرتي على تطوير العلاقات المعقدة مع الدبلوماسيين الليبيين والعراقيين، في اتجاه مغاير للسياسة الأمريكية الرسمية، وإذا نجحت

في هذه المحاولة، فعسى ذلك أن يكسبني احترام الذين يؤمنون بالحلول العسكرية، مثل هوفين الذي يعني له مكافحة الإرهاب التهديد باستخدام القوة، لقد أردت إثبات أنَّ التواصل والدبلوماسية يمكن أن ينجحا بطريقة أفضل.

اقترحت شرطًا واحدًا لقبول هذا العرض، وهو عدم تدخل الحكومة الأمريكية في نشاطي السياسي لأي سبب، بصرف النظر عن الظروف والأحوال؛ فقد عارضت حرب الخليج الأُولى على العراق، وعارضت أيضًا الحرب الثانية بكل شراسة، وطالبت بحقي الكامل في الضغط على الكونغرس والأمم المتحدة لمعارضة العقوبات والسياسات العسكرية الأمريكية تجاه العراق وليبيا والشرق الأوسط بصورة عامة، وإذا بدا ذلك مناقضًا لأجندة الاستخبارات الأمريكية، فإنَّ نجاح عملي في مكافحة الإرهاب سيعتمد حقيقةً على إخلاصي في معارضتي للحرب والعقوبات، إنَّ هذين المسارين متداخلان بطريقة معقدة لا مفر منها، وهذا ما أرادت الولايات المتحدة أن تستفيد منه، وهذا ما كان عليها أن تتحمَّله، قبلوا شرطي كاملًا غير منقوص، وتفهموا موقفي، ولكن هوفين قال إنَّ عليَّ أولًا أن أقابل شخصًا ما.

استفزني هوفين، ولم يبلغني باسم ضابط وكالة الاستخبارات الأمريكية إلا قبل لقائنا به مباشرةً، لقد استغرق ترتيب هذا الاجتماع المباشر أشهرًا عدَّةً. كنت قبل ذلك سكرتيرة صحفية في مكتب عضو الكونغرس رون وايدين من الحزب الجمهوري عن ولاية أوريغون، وهذا ما جعلني أعتقد أنَّني صفقة جذابة، ولكن هذا ورَّطني أكثر مع هؤلاء الناس؛ فَهُم معروفون بالقدرة على حل المشكلات، وهم يظلون في الميدان عندما يتراجع الآخرون، وهم يعالجون الأمور التي أفسدها الآخرون ويئسوا منها، وهم حقيقةً مغامرون مبدعون.

إنَّهم يعلمونك أنَّ كل مواجهة وكل خبرة تعطيك سلاحًا أو أداةً، وكل أزمة تُوفِّر فرصًا جديدةً، وعليك أن تكون صُلْبًا متماسكًا مرنًا لكي تتمكن من لعب لعبتهم، فما من شك في أنَّ الأخطار عظيمة؛ لأنَّ الوسيط السري الجيد يُؤثِّر في فرص اللاعبين الآخرين في الميدان، وهذا هو الدور الكامل له.

حين قابلت أخيرًا الدكتور ريتشارد فيوز في شهر سبتمبر عام 1994م [76]، تعرفت العالَم المدهش الخاص لمجتمع الاستخبارات الذي أحاط نفسه به؛ فمع أنَّني كنت أعمل مع عضو بارز

في الكونغرس، فإن الدكتور فيوز لم يكن ليتنازل ويأتي إلى الكونغرس لحضور اجتماعنا الأول، وكان عليَّ بدلًا من ذلك أن أذهب لمقابلته في فرجينيا، كان مكتبه يبدو آمنًا إلى حد كبير.

وعدني هوفين أنَّ الرحلة تستحق العناء، كان يقود السيارة، وسار بنا في الشوارع الخلفية مخترقًا الضواحي؛ ليُصعِّب عليَّ العودة إلى المكان نفسه، ولما عدنا في اليوم الثاني قدت أنا السيارة، أُعجب هوفين بي جدًّا.

ونحن في الطريق ذكر لنا هوفين معلومات عن سيرة الدكتور فيوز المرموقة بوصفه ضابطًا كبيرًا في وكالة الاستخبارات الأمريكية بسوريا ولبنان والسعودية في ثمانينيات القرن الماضي، وقد تحدث عنه هوفين بأوصاف أسطورية.

في إحدى المراحل أدلى الدكتور فيوز بشهادته أمام الكونغرس بخصوص الشركات الأمريكية التي زودت العراق بأنظمة أسلحة قبل حرب الخليج الأُولى، وأدار شركة تصميم أزياء مع رايسا غورباتشوف، التي باعت حواسيب للاتحاد السوفيتي في أثناء مرحلة البريسترويكا، عندما كان زوجها ميخائيل غورباتشوف رئيسًا للاتحاد السوفيتي.

وقد كشفته سوريا عندما سرق مخططات نظام الاتصالات السوري الجديد من قبو مخزن محكم الإغلاق، كانت تلك (مهمةً مستحيلةً) كما قال هوفين.

وأخيرًا، ادَّعى الدكتور فيوز أنَّه يعرف القصة الحقيقية لتفجير طائرة (البان آم 103) فوق لوكيربي، بما في ذلك هوية المخططين الرئيسيين للعمل الإرهابي، وأصر على أنَّهم ليسوا ليبيين [77].

في تلك الأيام كان الدكتور فيوز شابًّا وسيمًا (من أصول هنغارية) حظي بإعجاب جميع مَن عرفوه، وكان يتردد على مونت كارلو وباريس عندما لا يكون في بيروت. كان يملك شقة في باريس تطل على نهر السين، إلى أن استعارها أمير عربي لقضاء عطلة نهاية الأسبوع مع صديقته، لكنَّه رفض إخلاءها مستندًا إلى القانون الفرنسي المتعلق بوضع اليد.

من المؤكد أنَّ الدكتور فيوز هو أكثر إنسان مدهش ومعقد قابلته في حياتي، كانت المهمة بالنسبة إليه سهلةً؛ فهو ذكي، وعالِم، ومخترع، وكانت خزانته تزخر ببراءات اختراع لمنتوجات

دوائية، إنَّه مِثْلُ عالمٍ كيميائيٍّ، لقد كان العمل معه ومع هوفين أفضل شيء فعلته في حياتي، ولا أندم على شيء منه. في أثناء المفاوضات المتعلقة بمحاكمة لوكيربي في الأمم المتحدة، أعددت بيانًا عن أول اجتماع لنا في شهر سبتمبر من عام 1994م [78].

كان للدكتور فيوز علاقات عمل وثيقة بلبنان وسوريا والسعودية في ثمانينيات القرن الماضي، وعن طريق هذه العلاقات استطاع اختراق شبكة إرهابية سورية مرتبطة بالجهاد الإسلامي (تحول إلى حزب الله) الذي كان يحتجز في أثناء إقامته في بيروت (96) رهينةً غربيةً مهمةً، منهم: مراسل وكالة أسوشيتد برس تيري أندرسون، والمبشر الإنجيليكاني تيري ويت، ومدير مكتب شبكة سي إن إن الإخبارية جيري ليفين، ومدير محطة وكالة الاستخبارات الأمريكية ويليام بوكلي.

نشر تنظيم الجهاد الإسلامي شريطًا مصوَّرًا يُظهر جلسات التعذيب التي يتعرض لها بوكلين، وهو ما أدى إلى وفاته في نهاية الأمر، وقد عزَّز ذلك ضرورة الإسراع في إنقاذ بقية الرهائن.

قال لي الدكتور فيوز إنَّه نجح في تحديد المسؤولين عن عملية الاختطاف، وحدَّد المواقع والشوارع والبنايات التي توجد فيها الرهائن، مُعرِّضًا سلامته الشخصية للخطر، ثم استدعى بعد ذلك قوة دلتا الأمريكية للقيام بعملية إنقاذ منظمة، ولسوء الطالع، فإنَّ عملية الإنقاذ أُلغيت من أعلى المستويات في واشنطن، وتأخرت أشهرًا عدّةً إلى ما قبل انتخاب الرئيس جورج بوش عام 1988م، وهذا ما سماه الدكتور فيوز (مفاجأة أكتوبر) الأصلية.

تحدثنا مُطولاً عن كيفية تمويل الأنشطة الإرهابية عالميًّا عن طريق بيع الهيروين والأفيون من وادي البقاع في لبنان، وقد أوضح الدكتور فيوز كيف أنَّ تفجير طائرة (البان آم 103) كان يهدف إلى قتل فريق من عملاء وكالة استخبارات الدفاع العائدين إلى واشنطن، للاحتجاج على اختراق وكالة الاستخبارات الأمريكية عمليات تهريب الهيروين ضمن جهود تحديد الرهائن في بيروت.

شكَّ أحد أعضاء الفريق في أنَّ عميلًا مزدوجًا في فريق وكالة الاستخبارات الأمريكية يُحذِّر الجهاد الإسلامي كلما اقترب فريق الإنقاذ من تحديد مكان احتجاز الرهائن؛ ليتسنى

نقلهم إلى مكان آخر. وقال الدكتور فيوز إنَّ تفجير طائرة الركاب الأمريكية كان عملًا إرهابيًّا انتقاميًّا لحماية المكتسبات في وجه الجهود الرامية إلى القضاء على تهريب المخدرات، فأرادوا منع فريق التحقيق من الوصول إلى واشنطن لتقديم تقريره، وما أدهشني هو أنَّ الدكتور فيوز أقسم أمامي أنَّه يستطيع تحديد هوية الذين رتَّبوا تفجير الطائرة، وأكد عدم تورط أي لبناني في الهجوم، بأي صفة عملية أو استشارية.

طلب الدكتور فيوز مساعدتي بوصفي موظفةً في الكونغرس؛ فمن الواضح أنَّه استفز الشرطة الفيدرالية عندما حاول الاتصال بعائلات ضحايا الطائرة للحديث عن محاكمة لوكيربي، وأدلى بشهادته أمام لجنة فرعية في الكونغرس بخصوص قضية الشركة الأمريكية التي زوَّدت العراق بمنصات إطلاق صواريخ سكود قبل عام 1990م.

لكنَّه بدلًا من تلقي المديح خضع لتدقيق قاسٍ من سلطات الدخل المحلي للتحقيق في استخدامه أموال الموازنة السرية، وقيل لمحاميه الذي حاول وقف ملاحقته المسعورة إنَّ عليه إذا أراد ذلك أن يلتزم الصمت بخصوص توريد السلاح إلى العراق وقضية لوكيربي.

كان هذا هو سبب ورود تفجير طائرة (البان آم 103) في محادثتنا، وقال الدكتور فيوز إنَّ لديه معلوماتٍ كثيرةً عن الإرهاب في الشرق الأوسط، لكنَّ الولايات المتحدة لا تريد لأحد أن يتحدث عن براءة ليبيا من هذه القضية.

ثم تطرَّق إلى قضية لوكيربي؛ لإعطاء مثال على قضايا الإرهاب التي يستطيع حلها بسرعة، فقال: «إنَّهم يقتلون الرسول لأنَّه يُبلِّغ رسالة صادقة».

ونظرًا إلى علاقاته السورية؛ فقد أَسَرَّ لي إنَّه كان «الأول الذي بدأ التحقيقات على الأرض». في هذه المرحلة حاولت أن أكون عنيفةً، فقلت: «هل أنت جاد؟ كلنا يعرف أنَّ سوريا قامت بالتفجير، لقد كافأتم السوريين بإلقاء اللوم على ليبيا؛ لدعمهم (السوريين) لنا في أثناء الحرب على العراق».

قاطعني فورًا، قائلًا: «اسمعي يا سوزان، هل تفهمين الفرق بين المصدر الأساسي والمصدر الثانوي؟ هؤلاء الناس الموجودون في فرجينيا مجرد محللين؛ إنَّهم يقرأون التقارير الميدانية، ولكلا يوجد اتصال مباشر بالأحداث عندما تقع على الأرض، أو معرفة بالمعلومات المباشرة

عما يحدث؛ لذا فهم لا يعرفون أي شيء عمليًّا، حتى وإن كانوا يعتقدون ذلك»، «أما أنا يا سوزان، فأعرف ذلك، هذا هو الفرق، وبسبب مصادري في سوريا، ولأنَّني كنت فيها؛ فإنَّهم يقرؤون تقاريري (ضحك باستهزاء)، لكنَّهم في حالتي يقرؤونها ثم يُمزِّقونها، ولو تركتني الحكومة لاستطعت أن أُحدِّد الأفراد المسؤولين عن التفجير اليوم، أستطيع أن أفعل ذلك الآن، هل تريدين إثباتًا على ذلك؟ باستطاعتي أن أدخل مطعمًا مزدحمًا يَغص بأكثر من مئتي شخص، وأتعرف إلى أولئك الأشخاص بمجرد رؤيتهم».

«أستطيع أن أعرفهم بوجوههم وأسمائهم (أخذ يفرك يديه، ويفرقع أصابعه)، أستطيع أن أخبرك أين يعملون، وفي أي ساعة يصلون إلى مكاتبهم في الصباح، أستطيع أن أخبرك في أي ساعة يتناولون غداءهم، وأي المطاعم يرتادون، أستطيع أن أخبرك بعناوين بيوتهم، وأسماء زوجاتهم (إن كانوا متزوجين)، وأسماء أطفالهم، وعشيقاتهم»، «وهل تعرفين شيئًا آخرَ يا سوزان؟ لا يمكنك العثور على هذا النوع من المطاعم في أي مكان في ليبيا، لن تجدي هذا النوع من المطاعم إلا في سوريا، وأنا لم أعرف ذلك من التقارير؛ لقد عرفته بنفسي».

أخذ الدكتور فيوز يهز رأسه، ثم قال: «لقد عرفت ذلك لأنَّني كنت أُجري تحقيقًا على الأرض، هل تفهمين ما أقوله لك؟ أنا أعرف! ».

وفي ردي عليه، قلت: «قل لي بالله عليك، وسأجعل رئيسي يحميك» (في إشارة إلى عضو الكونغرس رون وايدن).

استشاط الدكتور فيوز غضبًا، قائلًا: «كلا كلا، هذا جنون، لا يُسمح لي أن أبوح بذلك لأي أحد، حتى لو كنتِ أنتِ الموظفة في الكونغرس».

وهكذا، فهمت أنَّ الدكتور فيوز يخضع لقانون كتم الأسرار، الذي يمنعه من إفشاء أي معلومات عن طائرة (البان آم 103)، أو أي قضية استخباراتية أخرى. ومع أنَّه قال صراحةً إنَّه يستطيع أن يُحدِّد المجرمين الحقيقيين في هذه القضية، فإنَّه يحتاج إلى أذن خاص من وكالة الاستخبارات الأمريكية للإدلاء بإفادته، أو إلى أمر خطي من رئيس الولايات المتحدة، في حال رفضت وكالة الاستخبارات الأمريكية منحه هذا الإذن [79].

أعتقد أنَّه كان حاسمًا في مسألتين؛ الأُولى: إنَّ المتهمين الليبيين قد حُرما الحق في محاكمة عادلة تتيح لهما استدعاء الشهود للدفاع عن نفسيهما، والبراءة من التهم. والثانية: إنَّ عائلات ضحايا لوكيربي قد حُرمت القدرة على تضميد جراحها، والشفاء من آلامها؛ بمعرفة الحقيقة كاملةً.

في كلتا الحالتين لم أستطع التزام الصمت؛ فقد أدركت أنَّ ما نكشف عنه سيزيد من آلام هذه العائلات، ورأيت - في الوقت نفسه- أنَّ علينا الكشف عن الحقيقة؛ لأنَّني أمقت هذا العنف كله من الإرهابيين والعسكرتاريا.

وكما تَبيَّن لاحقًا، فقد وجد هدف آخر لبوح الدكتور فيوز فيما يتعلق بقضية لوكيربي، لقد كان بحاجة إلى شخص يمكنه الاتصال بليبيا من أجل قضية لوكيربي؛ شخص مثلي -مقتنع ببراءة ليبيا- سيكون مناسبًا للتواصل مع الدبلوماسيين الليبيين في الأمم المتحدة، ونظرًا إلى معارضتي الشديدة للعقوبات؛ فقد اعتقد الدكتور فيوز أنَّني قد أنجح في إقناع ليبيا بقبول المحاكمة، وتحريك المفاوضات المجمدة.

لم أتردد في قبول العرض بحماسة شديدة (أضيف العراق إلى مهمتي بعد سنة)، في هذه اللحظة من محادثتنا السرية عرَّف هوفين نفسه بأنَّه (ضابط الحالة)، أو المسؤول المباشر عني؛ لذلك فإنَّ كثيرًا من أوراقي الخاصة - من منتصف تسعينيات القرن العشرين- تشير إلى هوفين بوصفه (مسؤول وكالة استخبارات الدفاع)[80]، أو (حلقة الوصل مع وكالة استخبارات الدفاع). أنا لم أختلق ذلك، كانت هذه هي الحقيقة، كنت أعتقد دائمًا أنَّ هوفين يقوم بدور ارتباط مهم مع وكالة استخبارات الدفاع، لقد كان كلا الرَّجلين يُشرِف عليَّ، ويعطياني التوجيهات والتعليمات، وكنت أشعر بثقة لأنَّهما يقفان ورائي.

لم يحاول الدكتور فيوز إخفاء علاقته بوكالة الاستخبارات الأمريكية، لقد كانت له شبكة مصادر واسعة في مختلف أنحاء العالم العربي، وكانت له رؤية ثاقبة في سياسات الشرق الأوسط، أما هوفين فكان كتومًا بخصوص علاقته بوكالة استخبارات الدفاع. ولكن، ما كنا لنجري أي محادثة من دون استنتاج أنَّ له علاقاتٍ وثيقةً بوصفه عميلًا سريًّا، كان يتحدث عن هذه

الاستخبارات طوال الوقت، ويتحدث كثيرًا عن زيارة المزرعة (كناية عن هذه الاستخبارات)، كنت أمازحه بسؤالي عن الحيوانات في هذه المزرعة، وقد سميتها (لعبة ماكدونالد القديمة):

— هل يوجد دجاج في مزرعتكم؟

— لا (كان يرد عليَّ).

— ولكن، يوجد بقر بكل تأكيد.

— كلا (يهز رأسه مبتسمًا).

— إذن، هي مزرعة خنازير، هل لديكم خيول؟

— لا، إنَّها أحد أنواع المخابئ السرية المُقامة على حافة جبل، مع أجهزة إنذار إلكترونية تعمل عند دخولك المبنى.

يبدو صعبًا على مَن هم خارج اللعبة فهم ما يجري، ولكنَّ هذا هو طبيعة عمل الاستخبارات؛ إذ لم يعلم إلا قليل من الناس بما كنت أقوم به طوال تلك السنوات؛ لأنَّه يتعيَّن عليَّ أداء المهمة بكتمان شديد.

استمرت علاقتي بهوفين وفيوز عشر سنوات، وقد خَبُرت هذين الرَّجلين جيدًا في هذه الأثناء، كان بول يمازحني أحيانًا بقوله إنَّني «ناشطة سلام غبية»، ولم يكن ذلك يزعجني، ومع أنَّ الأمر قد يبدو غريبًا، فإنَّ ما قاله ذلك الرجل العربي المُسن في لندن صباح اليوم الثاني من قصف طرابلس، ساعدني كثيرًا على نجاح اتصالاتي بالعراق وليبيا.

قد تبدو رؤيته خلافية بالنسبة إلى مواطن عربي، لكنَّه أصاب الهدف بدقة متناهية، وما أزال أكتشف -بعد عقود من لقائنا- أنَّه قد أخبرني كل شيء عن حياتي في ذلك الصباح؛ إنَّه أمر غير طبيعي بالنسبة إليَّ قبل كل شيء، ولكن من المستحيل إنكار حدوثه، وهكذا سارت الأمور.

عندما عملت في الوساطة السرية طوال تسعينيات القرن الماضي حظيت بتعاون مباشر ورئيس من ليبيا والعراق في قضايا مكافحة الإرهاب، ولم يحظَ أي إنسان غيري بمثل هذه العلاقة الوثيقة بسفارة وبعثة هذين البلدين في تلك المرحلة.

obeikan.com

كل ذلك يُفسِّر كيف -عندما قرر القادة الجمهوريون إعلان الحرب على العراق- أنَّ مشاركتي ومعرفتي العميقة كانت عقبة كَأْداء أمام طريقتهم لإعادة التاريخ إلى الوراء.

فإذا أراد البيت الأبيض اختلاق رواية يمكن أن تدحض حقائق التاريخ، فعليهم أن يتخلصوا مني أولًا، لا يمكن لكذبهم أن يتعايش جنبًا إلى جنب مع الحقيقة التي أقولها، عليهم أن يقضوا عليَّ، وسيحاولون ذلك.

obeikan.com